فاعلية المكان عند ابن عنين (ت630هـ) *

فارس ياسين محمد الحمداني *

تأريخ التقديم: 2019/10/24 تأريخ القبول: 2019/11/26

المستخلص :

يقوم المكانُ داخلَ النص الشعريّ بدورِ فعّال في بنائه وتركيبهِ ، منه تنطلقُ الأحداثُ ، وفيه تتحركُ الشخصياتُ ، وتشحنُ النصَّ بدلالاتٍ مكثفةٍ تجعلُهُ نابضًا بالحياةِ وتضفي عليهِ طابعَ الشموليةِ والتكاملِ ممّا يجعلُهُ يتشكل تشكيلاً فنيًّا خالصًا معطيًا للقارئ انطباعًا واضحًا عنه ، فهو عنصرٌ مكونٌ للنصّ الشعريّ وتماسكهِ وانسجامهِ ، وبذلك يكونُ من عناصر التكوين الشعريّ فيحملُ بدلالتِهِ المتنوعة ملامحَ ذاتيةً وصفاتٍ إبداعيةً ومشاعرَ إنسانيةً ، فضلاً عن التجاربِ الاجتماعيةِ التي تكملُ العمل الفنيَّ ، فالمكانُ بطبيعتِهِ الماديةِ تختزلُ فيه الكثيرُ من المشاعرِ والأحاسيسِ الإنسانيةِ الخالصةِ ولاسيما أنها مرتبطةٌ به منذُ نشأتِهِ ، فالتراكم المعرفي عند (ابنِ عنين) مكنَّهُ من تصويرِ الأماكنِ الواقعيةِ تصويرًا متخيلاً يستقرُّ في ذاتهِ أولاً ،

* تنظر أخباره وترجمته في : معجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت 626 ه) تحقيق: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، 1424ه/ 1993م، ج 6 ، ص 2661، وينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان الاربلي (ت 681 ه) تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1994 ، ج5 / ص 14 ، وينظر : سير أعلام النبلاء ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت 748ه) ، دار الحديث / القاهرة ، 1427ه / 2006 م ، ج17/ ص 559 ، وينظر الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي (ت 764ه) ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1420ه / 2000م ، ج5 / ص 83 ، وينظر : الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت 1396ه) ، دار العلم للملايين ، ط 15 ، ج7 / ص 125.

* أستاذ مساعد /قسم اللغة العربية/ كلية الآداب /جامعة الموصل .

وذوات متلقيه ثانيًا ، وتحفزُهم على الاستشعارِ بهِ ؛ لأن كلَ مكانٍ عندَه مرتبطٌ بحدثٍ معينٍ وفعلٍ مشخصٍ برؤيتهِ الفكريةِ وخزينِ ذاكرتهِ، فالمكانُ خلاصةُ التفاعل بينَ الإنسانِ / الشاعرِ وبينَ دورهِ في إثارةِ المشاعرِ داخلَ الذاتِ التي تحاكيهِ مما يؤثرُ على سلوكهِ ، فيكتسبُ منْ سماتهِ ليرسخَ تجاربَهُ الإنسانيةُ بها .

الكلمات المفتاحية : صورة؛ تلقى؛ شاعرية

إنَّ المكانَ الحقيقيَّ معاشٌ بالنسبةِ للإنسان ، منها يأخذُ انطباعاتِهِ وطريقةَ عيشِهِ وتحفزهُ على الفعلِ والحدثِ ، ومن ثمَّ تبني شخصيته وتنمّي قدراتِهِ وتُظهرُ هويتَهُ ؛ لذا فقد أخذَ المكانُ حيزًا من نصوصِ الشاعرِ متداخلةً مع إبداعاتِهِ وانجازاتِهِ فصارتْ ذاتَ أبعادٍ فاعليةٍ جماليةٍ مؤثرةٍ وذاتَ أصالةٍ وخصوصيةٍ مميزةٍ محتضنةً عواطفَهُ المغناةَ بنصوصِهِ ، كاشفةً أسرارَ حنينهِ للمكانِ واشتياقه له ، ولا يمكنُنا الحديثُ عن المكانِ وفاعليتهِ قبلَ ولادتها شعريًا ، وتأثره به ، وانسجامه معه ، فهو الكيان الفعلي الذي يحتوي على تاريخه آماله والآمه ، وهو ارتباط حميميٌ به يحوي وعيَه الفكريَّ والعاطفيَّ .

والمكانُ يرتبطُ بالإدراكِ الحسيّ، ويتصلُ بالوصفِ[1]، ويمتازُ بالسكونِ ، وجلُّ اهتمامِنا في دراسةِ المكانِ خلفيتُهُ الفنيةِ ، وتشكلُه النفسيّ من زاويةِ معاينةِ الذاتِ الشاعرةِ لها ، التي من خلالها نكشفِ عن العلاقةِ الثلاثيةِ ما بينَ (ذاتِ الشاعرِ/الأنا) و (الآخر) الذي هو المتلقي/ القارئ، وبينَ المكانِ وعلاقتهِ بساكنيه : –

الأنا ← المتلقي ← المكان

الذات ← القارئ ← الحيز

وما ينتج عنه من دلالاتٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ تكونُ للوهلةِ الأولى طبيعيةً بصريةً تتشكل لغويًا ، ثم شعريةً خياليةً نتيجةً لما يلقاهُ في المكانِ أو يجدهُ فيه ، فالمكانُ وعاءٌ حسيٌ يصبُ الشاعرُ فيه شحناتِهِ الانفعاليةِ ويحوّلُه

(1) ينظر: –المكان ودلالته في رواية (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف، الأستاذ الدكتور صالح ولعة، عالم الكتب الحديث،إربد، الأردن 1431هـ–2010م، ص53

بخيالهِ وشعرهِ إلى مكانٍ مثاليّ إيجابي، أو مكانٍ سلبيّ حسبَ رغبتِهِ وطاقاتِه الشعرية ، فينتقلُ بالمكانِ من الواقع الموضوعيّ إلى عالمٍ مطلق مفتوح ، وَيعْبُرُ بالصورةِ الحقيقيةِ إلى صورة غيريّةٍ تُدْرَكُ بالخيال ، (واللغةُ تُكسبُ المكانَ خصائصَ فيزيقية ومجردة في آنٍ معاً) [1].

والمتلقي لا يعرفُ بوجودِ المكان في النصّ الشعريّ إلا من خلال تشّكلِ المكانِ لغويًّا ليكونَ بديلاً عنه في الواقع الموضوعيّ ، فيكونُ للمكانِ بذلك خاصيتان : الخاصيةُ الحسيةُ على أرضِ الواقع ، والخاصيةُ الشعريةُ الجماليةُ الموظفةُ في النصّ الشعريّ ، ويعدُّ المكانُ شعريًا الخزينَ الاستراتيجيَّ لخيالِ الشاعرِ الذي يُظهرُ في جماليته والشاعرُ لم يتعاملْ مع المكانِ على أنه كيانٌ ماديٌّ فحسب بلَ صارَ نقطةَ ارتكازٍ مهمةٍ لخيالِهِ ، فكان مكانُهُ كنقطةِ الضوءِ المشعّةِ في نصهِ الشعري يكشفُ عن بها فحوى موضوعِه، ومما يميزُ المكانَ و توظيفَها أنها تتوسطُ في التركيب بينَ رؤيةِ شعريةِ يتحكمُ الخيالُ فيها ليمنَحها بُعداً تأثيريًا جماليًا، وأحاسيس المتلقي ورؤيته النقدية ليتعرفَ على تجربةِ الشاعرِ، وبهذا فإن المكانَ المدمجَ الموظَفَ في بنيةِ القصيدةِ يكونُ المفتاحَ الرئيسَ على عالم التخييلِ عندَ المتلقي[2]، والمكانُ عنصرٌ جوهريٌّ في بنيةِ النصّ ، فله وظيفةٌ تأطيريةٌ للمساحة التي تقعُ فيها الأحداثُ ، وبحكمِ شعريتِهِ يُضْفي قيمةً اجتماعيةً وجماليةً على الحدثِ والمعنى .

يمكن المكان من الغوص في أعماق النصّ الشعريّ لاستخراجِ مكوناتِهِ الجمالية ، كما أنّ (المكانَ حقيقةٌ معيشةٌ ، ويؤثرُ في البشرِ بالقدرِ

(1) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر–دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، قادة عقاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص270

(2) ينظر: فاعلية المكان في الصورة الشعرية (سيفيات المتنبي أنموذجاً) مجلة ديالى / العدد 40،2009، م.د. علي متعب جاسم، م.د. مثنى شفيق توفيق، ص4

الذي يؤثرون فيه)[1] فكان ورودُ المكانِ عندَ الشاعر تعبيرًا عن مشاعره وذاته ليجَدَ نفسَه أمامَ المكانِ الطبيعيّ الجغرافيّ فيكونُ تفاعلُه معَهُ لينُتجَ شعرًا مكانيًا يحملُ في طياتِهِ قضايا نفسيةً وشعوريةً وذاتيةً واجتماعيةً ، (فكل ملامسةٍ للمكانِ إنّما هي ملامسةُ لشبكاتِ العلاقاتِ التي تربطُ الأشخاصَ بالمجال المعيشيّ ارتباطَ وجودٍ وانتماءٍ وهويةٍ) [2]، والشعرُ العربيُّ شعرٌ مكانيٌّ في ارتباطِهِ بالبيئةِ التي أنتجتهُ ، والإنسانِ / الشاعرِ الذي أبدعَهُ .

ويعدُّ المكانُ بناءً يتسمُ تشكيلُهُ بالحدثِ اعتمادًا على ملامحِ الشخصيات ومميزاتها وطبائعها، وهذا يساعدُ على تجاوزِ المكانِ الهندسيِّ إلى المكانِ الشعريِ[3]، الذي يحملُ دلالاتٍ متنوعةً لتنسجمَ معَ البعدِ الفنيِّ للنصِّ ، وأحيانًا يكونُ المكانُ هو الهدفَ من العملِ الشعريِّ كلِّهِ ؛ لأنه يضمنُ التماسكَ البنيويّ للنصِّ بأكملِهِ .

إنَّ توظيفَ الشاعرِ للمكانِ يمدُّه بطاقةٍ تخييليةٍ وجماليةٍ في التعبيرِ، وعمقًا في التفكير ، ويحددُ له مسارًا رؤيويًا متميزًا ، يفعلُه الجانبُ الآخرُ (المتلقي) الذي يُسهم بدورهِ أيضًا في إحياء النص تخييليًّا وجماليًّا من خلالِ منظورهِ المتجددِ للنصِّ , والمكانُ يقدمُ دورًا في تكوين الشخصية الإنسانية وتصوراتها , ومفاهيمها , وتوجهاتها , وإدراكها للأشياء , كما يشكلُ باعثًا

(1) المكان ودلالاته ، يوري لوتمان، تقديم وترجمة سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة((ألف)) ، القاهرة 1986، العدد6، ص83

(2) فلسفة المكان في الشعر العربي–قراءة موضوعاتية جمالية – د. حبيب مؤنسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص5

(3) ينظر: – المكان ودلالته في رواية (مدن الملح) ص55

للإبداع ومفسرًا لأثــارهِ النفســيةِ والاجتماعيــةِ والجماليــة ... [1] وبهــذا يكــونُ مصدرَ غنى للنصِّ الإبداعيِّ .

* * *

1/ المكان (خصوصية الوصف والموضوع):

ينجذبُ الإنســانُ بطبيعــةِ الحــالِ نحــوَ أمكنــةٍ مختلفــةٍ ، ويتعلــقُ بهــا لأسبابٍ متعددةٍ , وخيالُ الشاعرِ في المكانِ يختلــفُ عــن خيــالِ الإنســانِ العــادي ، فلديه هاجسٌ منزوٍ في أطرافِ ذاكرتــهِ التــي تختــزلُ ملامــحَ شــعريةِ المكــانِ ليبنيَ بها خيالَه ، ويطلقُها في نصِّه لتمنحه الطاقــةَ للتعبيــر عمّــا بداخلِــهِ مبــرزاً بريقَ المكانِ[2]، فـــــــ (المكانُ الذي يأســرُ الخيــالَ لا يُمكــنُ أنْ يبقــى مكانًــا لا مباليًا خاضعًا لأبعادٍ هندسيةٍ فحسب ، بل هو مكــانُ عــاشَ فيــه النــاسُ لــيسَ بطريقةٍ موضوعيةٍ وإنّما بكلِّ ما للخيالِ مــن تحيــزات)[3] وهنــاكَ أمكنــةٍ تمتلــكُ قيمًا جماليةً تجذبنا نحوَه ولا سيما إذا كانــتْ موظفــةً توظيفًــا فنيًّــا فــي الــنصِّ الشعريِّ ، فنجد بعضها مليئاً بالنبض والحيويــة ، ففيهــا ينشــطُ الخيــالُ وتتــزاحمَ

(1)ينظر :- دراسات في الشعر الفلسطيني المقاوم , عبد الخالق العف , رابطة الكتاب الفلسطينيين , 2010 م , ص 76 .

(2) ينظر: بلاغة المكان/ قراءة في مكانية النص الشعري، فتحية كحلوش، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت-لبنان، ط1، 2008م، ص9

(3) بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتــاب، ط1، 1984م، ص76

الصورُ المليئةُ بالرموزِ والدلالاتِ ، وتحرّك الحواسُ ، لذا نجد (ابن عنين) يقولُ في خصوصيةِ المكانِ وهو يحنُ إلى بيتهِ في دمشق[1]:-

منازلُ أُنسٍ ما أَمحَّتْ بَمرّ الغوادي والسواري سطورُها

كأنَّ عليها عبقريَّ مطارفٍ من الوشي يُسديها الحَيا ويُنيرُها

تزيد على الأيام نوراً وبهجةً وتذوي الليالي وهي غضٌ حبَيرُها

إذ الريحُ مرَّت في رباها كريهةً حَباها بطيبِ النشرِ فيها مرورُها

للمنزلِ وقعٌ في نفسِ الشاعرِ و فضائهِ وفكرهِ الإنسانيّ ، فيه راحتهُ ، وخارجُه له صراعٌ مع الحياةِ ، فالمنزلُ مهما كانَ شكلهُ فإنّه يختزنُ حزمةً من الدلالاتِ فيهِ كالراحةِ والاطمئنانِ والدفءِ والحمايةِ والحبِ والوقايةِ ...، ويشعرُ فيهِ بالسكينةِ ، فالعلاقةُ بينَ الإنسانِ والمكانِ (المنزلِ) تتسمُ بالالتصاق والتلازمِ ، فذلك المكانُ الذي أرادهُ الشاعرُ لمْ يمحُ أثرَه في نفسهِ على الرغمِ من كثرةِ الأمطارِ التي عدتْ عليها (الغوادي) كلّ صباحٍ ، فظلت تلك المنازلُ رمزًا على الرغمِ من ظُروفِ الحياةِ وقسوتها، منبهاً إياها بـ(العبقري) لكمالِ الإبداعِ والحسنِ فيها لتمام المبالغةِ في حبهِ لها ، مقتبسًا ذلك من قوله تعالى((ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾﴿ ﴾﴿)) [2] تأثيثاً لمنزلهِ ، موظفًا الأداة (كأن) ليضعَ رؤيةً تلاحميةً للربطِ بينَ شعورهِ وشعورِ المتلقي تجاهَ المكانِ الموصوف فشعورهُ يُفتشُ في زوايا المكانِ سعيًا لبثِّ الروحِ فيها لتتطورَ حدودَهُ الشعريةَ إلى خصوصيةٍ أكبرَ ليدخلها في حيزٍ مكانيّ أوسعَ ،

(1) ديوان ابن عنين ، تحقيق ونشر خليل مردم بك ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1365ه/1946م، ص16

(2) سورة الرحمن/ آية 76.

ثم يقَحمُ الزمنَ في إطارِ المكانِ (الأيام، الليالي) دلالةً على الاتساعِ والرحابةِ القصوى والسكينةِ والتأملِ والهدوءِ والإرادةِ الصلبةِ التي تثبتُ عليها ؛ لذلك يعدُّ المكانُ مفتاحًا من مفاتيحِ إستراتيجيةِ القراءةِ بالنسبةِ للخطابِ النقدي ، فهو يتغلغلُ عميقًا في الكائن الإنسانيّ حافرًا مساراتٍ غائرةً في مستوياتِ الذاتِ المختلفة [1]، فبمقدار ما يرى الشاعرُ مكانَهُ جميلاً حتى أنّ الريحَ إذا مرتْ بها (كريهةً) تحولت بفضل المكانِ إلى ريح طيبة (بطيب النشر) عند مرورِها ، فكانتْ منازلُ الديارِ محكومةً شعريًّا بالفكرةِ والفعلِ ولها تأثيرُها المباشرُ عليه ، فكانتْ حقيقيةً أثرتْ على ذاتِهِ ، وهي ليستْ أمكنةً فارغةً غيرَ مؤثثةٍ ، فهي المساكنُ الطبيعيةُ التي تُمثلُ مركزَ السلطةِ كيفما كان نوعُها ، وهي بؤرةُ التفاعلاتِ والأحداثِ بشتى أنواعِها، وهذه (المنازلُ- الأمكنةُ) حفرتْ لدى الشاعر آثارًا عميقةً في ذاتِهِ الشعريةِ والإنسانيةِ وبها ظهرتْ خَبايا نفسِهِ الإنسانيةِ ، فاستحضارهُ للمكانِ قدْ فعلَ فِعلهُ المباشرَ في الذاتِ دونَ واسطةٍ ، فالشاعرُ ارتفعَ بالمنازلِ مِنْ مجردِ حيزٍ جغرافيّ جامدٍ إلى حيزٍ لغويّ ينبضُ بالحياةِ والحركةِ والتفاعلِ الإنسانيّ النفسيّ .

ويستحضر الشاعرُ في حالة شعرية تعويلَهُ على المكانِ لتحقيق غايةِ شعريةِ منجزةٍ في نفسِهِ متكئًا على مكانٍ خاصٍّ ، يقول [2] :

سقى اللهُ دوْحَ الغُوطتين ولا ارتوى ... من الموصلِ الحدباءِ إلا قبورُها

فيا صاحبي نجواي بالله خبّرا ... رهينَ صباباتٍ عسيرٌ يسيرُها

أمن مرحٍ مادتْ قدود غصونها ... ببهجتها أم أَطربتها طيورُها

---

(1) ينظر: –جماليات المكان في ثلاثية حنامينه، (حكاية بحّار، الدّقل، المرفأ البعيد) ، مهدي عبيدي ، وزارة الثقافة ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2011م ، ص26

(2) الديوان/ص16

خليلـــيَّ إنَّ البـــينَ أفنـــى مـــدامعي فهل لكمـــا مـــن عبـــرةٍ أســـتعيرُها

لقد أُنسيتْ نفسي المســـراتِ بعـــدكم فإنْ عادَ عيدُ الوصلِ عاد ســـرورهُا

على أَنَّ لي تحـــت الجـــوانح غلَّـــةً إذا جادهـــا دمـــعٌ تلظَّـــى ســـعيرُها

وأصعبُ مايلقى المحبُّ من الهـــوى تداني النوى مـــن خُلـــةٍ لايزورُهـــا

يدخلُ القبرُ ضمنَ خصوصـــيةِ الوصـــفِ والموضـــوعِ بالنســـبة للمكـــانِ عنـــدَ الشاعرِ، فهو مكانٌ خـــاصٌ ، وثابـــتُ ، إذ يـــدعو للميـــت بالســـقيةِ (ســـقى اللهُ...) ووظفَ (الغوطةَ) بصـــيغةِ المثنـــى جمعًـــا للبســـاتين الشـــرقيةِ والغربيـــةِ لدمشـــق فهي من الأماكنِ المحببةِ لنفســـهِ ، لجمـــالِ طبيعتهـــا وحُســـنِ مناظرهـــا ، فكانـــتْ (الغوطةُ والقبرُ) مرتكزين لتوظيفِ المكـــانِ داخـــلَ الـــنصِّ الشـــعري لاســـتثمارهما في إيصالِ غايتِهِ الشعريةِ مناديًّا أصحابَهُ بـــأنَّ دموعـــه نـــارُ تلظـــى حتـــى تتحقـــقَ أمنيتُه لبلادِهِ وتعودَ إلـــى ســـابق عهـــدها بالخضـــرةِ وطـــربِ طيورهـــا ، فالمكـــانُ بالنسبةِ للشاعرِ يعودُ إلى قيمتِـــهِ الاجتماعيـــة التـــي يـــرتبطُ بهـــا ويحمـــلُ معهـــا الشحناتِ العاطفيـــةَ التـــي تصـــاحبُه أينمـــا وُجـــدَ ، فملامســـةُ المكـــانِ هنـــا هـــي ملامسةُ شعورِ الشاعرِ بجمالِهِ التي تربطُهُ ارتبَـــاطَ وجـــودٍ وانتمـــاءٍ وهويـــةٍ حتـــى وإن كانَ مكانًا خاصًا ، فالشاعرُ مـــن خـــلالِ المكـــانِ (يتحـــولُ إلـــى جملـــةٍ مـــن الأحاسيسِ والمشاعرِ التي ربما يثيرُها المكـــانُ بمحمولاتِـــه التذكريـــةِ ، التـــي لهـــا صلةٌ بالذاتِ في لحظةٍ من لحظاتها الســـالفةِ) [1] وبـــذلك يحـــالُ المكـــانُ (الغوطـــة / القبر) من الوجودِ الفعليِّ إلى الوجـــودِ المتصـــورِ فـــي أعمـــاق الـــذاتِ ، فلـــيسَ الغرضُ من وراءِ عرضِ المكانِ هـــو الموضـــوعُ الجمـــاليّ فحســـبَ ، بـــل جعلـــه محولاً يمكنُ ذاتَ الشاعرِ من التقاطِ الأحاسيسِ والمشـــاعرِ ، ممـــا ينـــدرجُ ضـــمنَ بنيةِ للنصِّ الشعريِّ وكأنَّ الشاعرَ يحاورُ المكانَ هنـــا بصـــورِ التحـــولِ والفنـــاءِ ،

(1) فلسفة المكان في الشعر العربي- قراءة موضوعاتية جمالية / ص131.

التحولِ إلى الخضرةِ والابتهاجِ ، ثم الفناء والموت بصورةِ (القبر) الذي هو المأوى الأخيرُ، وكأنّ الدنيا تذكّره دومًا بالزوالِ ، لكن الفطرةُ البشريةُ في حبّ المكانِ ملازمة لوعي الشاعر على الرغمِ من إدراكِهِ بحتميةِ الموتِ في النهايةِ ، أما قول الشاعر (خليليَّ) بصيغةِ المثنى ، فقد كان في العرفِ العربي سابقًا أنّ الركب أكثر من اثنين ، وأنّ الشاعر أجرى خطابَ الواحدِ لأكثرِ من اثنين تعظيمًا للأمر، وتقليلاً للتكرار (خليلي خليلي) وتوكيدًا للنداءِ والخطابِ ، مناديًا الصاحبَ الخالصَ الصافيَ المحبةِ والودِّ ، فيتحسرُ الشاعر ويتألمُ وينسى المسراتِ بعد فِراق الأصحابِ والمكانِ ، وبعودتِهم يعودُ السرورُ والفرحُ إلى قلبهِ , فالشاعرُ عندما عوّلَ على المكانِ الخاصّ في نفسِهِ تحوّلَ النصُ ليصبحَ مرئيًّا بالدرجةِ الأساسِ لإنتاج الشفرةِ الدلاليةِ , إذ استفاد (ابن عنين) من إمكانياتِهِ التصويرية بترحيلها إلى ارضِ الواقعِ ملبيةً طموحَ المتلقيّ وحاجتِهِ للتعرفِ على المكانِ حتى وإن لم يرَه , وللموصلِ وقعُ أثيرٌ في نفسِ الشاعرِ بها يستأثرُ اللذةَ الجماليةَ ويبقى نصُهُ الشعريٌّ شامخًا بذكرها ثم يبدأ بتضييق مكانِهِ بـــــ (قبورها) وهنا المكانُ يبدأُ عنده بـــــ (المسافةِ الممتدةِ والمتناهيةِ لتناهي الجسم) [1] فهو إدراكٌ جديدٌ للمكانِ عنَد الشاعرِ بتخصيصه السقيةَ لـــــــ (قبور) أهلِ الموصلِ فَغيّر الزاويةَ التي نظرَ منها للمحيطِ المكانيّ وركز الرؤيةَ على (القبور) تشخيصًا عامًا لكل المدينة , وكأنّ السقية صارتْ مخصوصةً على القبورِ فقط بتقديمه المكانَ المخصوصَ وتصويرهِ مع ما يتناسبُ ورؤيتَه لأولوياتِهِ ليدرك الآخرون أهميتَه ، ثم يعودُ مُناديًا (صاحبيه) الملازمين له بأن شوقه / حنينه محبوسُ للموصلِ حتى يعودَ إليها ، فهو المكانُ المرجو الرجوعَ إليه ، المكانُ المأهولُ في قلبِهِ وخيالِهِ ، سهلُ صعبُها ، لينةٌ جوانِبُها ، شاكيًا

(1) نظرية المكان في فلسفة ابن سينا , حسن مجيد العبيدي , بغداد , دار الشؤون الثقافية العامة , وزارة الثقافة والإعلام , ط1 , 1987 م , ص 27

لـــــــ (خليليه) أن البُعدَ والفرقةَ قـد قضـتْ عليـه وأفنـتْ مدامعَـه ، راجيًـا منهم المساعدةَ والعطفَ فتظهرُ معاناتُه مع المكـانِ والاشـتياق ، فـدائرةُ الزمـانِ تدورُ به ويطحنهُ الشوقُ ، مؤكدًا بـــــــ (قـد) التحقيقيـة مصـحوبًا بالفعـل (أنسيت) مصرًا علـى ضـياعِ نفسِـهِ بعـد الهجـرِ والفـراق ، وانصـهار نفسِـهِ المتصـاعدةِ ، فالحسـرةُ والشـوقُ (البـين أفنـى مـدامعي ، أنسـيت نفسـي) يُغطيانِ على المسافةِ التي بينه وبين (الموصل / المكان) فـإنْ عـاد إليهـا عـادَ له السرورُ والفرحُ متناسيًا كلّ مـا كـان ، عائـدًا للـزمنِ الـذي سـبقه ، فهـي حاضرةٌ في خيالهِ ، مستقرة في جوانحِهِ ، (على أنّ لـي تحـت الجـوانح غلـة) فأضلاعهُ القصيرةُ في صدرهِ تحمِـلُ الشـوقَ الكبيـر علـى الـرغمِ مِـن صـغرها فهي مكانٌ داخل فضاءِ الجسمِ فقـد أشـرفت علـى الهـلاكِ مِـن شـدةِ الحنـين ، فكانت البواعثُ النفسيةُ اشدّ وقعًا عليـه ، مسـتكملاً مُنجـزه الإبـداعي بـــــــ (تحت) التي أشارَ بها إلـى جـزءٍ مـن المكـانِ داخـلَ الجسـمِ كلـهِّ ، مشـبهًا العطشَ في الجوانحِ بالشوق والحنـينِ للقـاءِ المكـانِ ولاسـيما إذا ارتـبطَ معهـا نزولُ الدموعِ وذرفها عندَ التـذكرِ ، فهـي تثـورُ كالبركـانِ داخلَـه كلمّـا سـاقَه الشوقُ لها ، فتستقرُّ الشكوى مـن البُعـدِ فـي وعيـهِ ، فكانـتْ محـورَ معاناتِـهِ وهي نابعةٌ من نفسٍ متعبةٍ ، متوجعـةٍ ، متوهجـةٍ إلـى أصـحابهِ ليُعينـوه علـى التحملِ والصبرِ ، فهنا جاذبيةُ المكانِ (تنبعُ مـن قـوةٍ جماليـةٍ تولـدُها الصـورةُ واللغةُ وكلّ ما يثيرهُ النصُ الشـعريُّ لتحريـكِ المـؤثراتِ الفعالـةِ داخـلَ المُنجـزِ الشعريِّ وللتـدليلِ علـى الجاذبيـةِ الفنيـةِ لهـا) [1] فهـو يتحـولُ مـن حالـةِ الاغترابِ ببعده عن المكـانِ إلـى حالـةِ التوافـق والـتلاؤم عنـد التـذكرِ ، كـأن جاذبية المكان تنسيه ما فيه ، أو يتناساَها عامـدًا متـأملاً العـودةَ القريبـةَ سـاعةَ إنشادِهِ النصِّ وهو بعيد عنها ، فهذا التحـول النفسـيِّ والمتخيـلُ لأجـزاء المكـانِ المتنوعِ من (الموصل / القبور / تحت الجوانح) سـعى فيهـا لـردمِ الهـوة بينـه

(1) الفكر الجمالي عند شعراء الحداثة المعاصرين ، د. عصام شرتح ، دار أمنة للنشر والتوزيـع ، المملكة الأردنية الهاشمية ، 2018 ، ص 83

وبين البُعدِ الحاصلِ في الواقعِ مما ساعدَه على إنتاج دلالاتٍ شعريةٍ تحملَ أبعادًا تصويرية صادمة للمتلقي ، ومن ثمَّ تشّدُ انتباهَهَ .

ويخصُّ الشاعرُ المكانَ في موضعٍ آخرَ وصفًا وموضوعًا ، إذ يقول[1]:-

أبقيت في كبدي عليكَ حزازةً تبدو لأهل الحشر يوم معادي

فسقى ضريحك كل دانٍ مسبلٍ متواتر الإبراق والإرعاد

حتى ترى عرصات قبرُك روضةً مَوْشيَّةً كوشائعِ الأبراد

فلقد مضيت وما كسبت خطيئةً وتركتَ دارَ بليَّةٍ وفسادِ

وسكنت داراً ملكها لك خالدٌ وتركتَ داراً ملكُها لنفَاد

تنهضُ القصيدةُ على منظومةٍ من الأفعالِ ذاتِ سياقٍ حركيٍّ (أبقيت) ثم ينتقلُ إلى أخرى (فسقى) ثم (سكنت) ففيها يستكملُ بناء الصورةِ الشعريةِ المكوّنةِ بـ (المكان) التي لامسَ فيها الواقعَ وجسّدَهُ ، وهذه الأفعالُ جاءت للإخبارِ ودلّتْ على ثبوتِ الدلالةِ واتحادها، وكأنّ الشاعرَ يُجري حوارًا مع (ضريحِ الميّت) وهي حركةٌ تحويليةٌ ترتقي بالجامدِ (الضريح) إلى (الحيّ) لغاية تعبيرية ، فبرؤيته للضريحِ أدركَ أنّه لا يستطيعُ أنْ يبرحَ المكانَ ، فهو يحتويه في الحياةِ والمماتِ ، فيتوهجُ المكانُ هنا عندَ الشاعرِ (الضريح، القبر، روضةً، دارًا) فكانتْ القضيةُ المركزيةُ للنصِّ ، إذ حولها من المكانِ العاديّ المؤلمِ المخيفِ إلى المكانِ الفنيِّ الذي يستأثرُ باللذةِ الجماليةِ واختزلتْ نشاطَهُ الإبداعيِّ النفسيِّ واتسمتْ بالديمومةِ ، وذلك بتحويلِهِ (الضريح

(1) الديوان/ص64

والقبر) إلى (الدار) الذي يحمل صفةَ الألفةِ والدفءِ وتبرزُ فيها الحمايةُ والطمأنينةُ وكأنّهُ المكانُ الملائمُ الذي تكونُ فيه حركةَ الحياةِ متسقةً ، جاعلاً من القبر دارًا ، ملكُها خالدٌ ، نافيًّا عنها صفةَ الدنيويةِ (تركت دارًا ملكها النفاذ) محولاً (عرصات قبره) إلى (روضةٍ) إذ حوّل المكانِ الخاصِ المخيفِ الضيّق المفارق للأحبابِ إلى المكانِ العامّ الفسيحِ الذي يحتضنُ التفاعلَ بينَ الأنا والعالم بالروضةِ مشركًا الخاصّ (القبر) بالعامّ (الروضة) بوجودِ الحيزِ الذي يشغلُ المكانين (الأجسام) فالقبرُ مكانٌ خاصٌّ لوجودِ (جسم الميت فيه) والروضةُ الأرضُ ذاتُ الخضرةِ والبهجةِ والبستانِ الحسنِ الجميلِ الذي يحوي عددًا من الأجسام ويرويه الغيثُ غيرَ المُنقطعِ عنه (متواتر الابراق والارعاد)، جاعلاً من قبره روضةً نافيًا عنها الوحشةَ والغربةَ ، مشبهًا القبرَ بالروضةِ والخشبةِ التي يلفُّ عليها ألوانَ (الغزل) (كوشائع) إظهارًا للجمالِ بدلَ الوحشةِ ، فبرحيله تركَ الدنيا وملذاتِها ومفاسدَها وتحوّلَ إلى دارِ ملكٍ خالدٍ ليس له نفاد .

وبرؤيةِ الشاعرِ لقبرِ الميتِ وضريحهِ وهو محبٌّ له ، كانت هناك تأثيراتُ نفسيةً للمكانِ عليه ، حاول إخراجَ نفسِهِ من ذلك الكبتِ والحزنِ إلى مكان عامٍ تفرحُ النفسُ برؤيتهِ ، فكانَ الانزياحُ والتحولُ عن المكانِ الواقعيّ إلى مكانٍ متخيلٍ له تشكيلٌ آخرُ في النصّ ، فبدلاً من ضيق المكانِ (القبر والضريح) الذي ترتبَ على رؤيتِهِ أمورٌ شتى معقدة وحزينةٌ ، وسّع الشاعرُ ذلك المكانَ وأخرجَه إلى غير دلالتِهِ ، فكان للمكانِ سطوةٌ على الإنسان/الشاعر، إذ انغمس داخلَه ، وتسللت إلى أعماقِهِ أصداءُ (المرثي) الذي أراد الخروج عنه وإزاحةَ الهموم عن صدرهِ ، فظهرت شعريةُ المكانِ عندَه ُعلى وفق إنتاجهِ للصورةِ الشعريةِ التي أرادَ بيانَها للمتلقي ، فتضاعفت قدرتُهُ الشعريةُ وتعمقتْ حتى اكتملَ مقطعُهُ الشعريُّ ، بوصفهِ القبَر أولاً ، ثم تأثيثه بالروضة ثانيًا ، ثم سكنه دار الدنيا ثالثًا وهي فانيةٌ وانتقاله بعد ذلك

إلى دارِ الآخرةِ وهي الباقيــةُ ، إذ جعــلَ مــن خصوصــيةِ المكــانِ (القبــر) بدايــةً لحياةِ الروحِ للمرثي في عالمِ الخلودِ .

وفي انتقالنا إلى نــصٍ آخــرَ لابــن عنــين حــولَ خصوصــيةِ وصــفهِ للمكــانِ والموضوعِ يقول[1]: –

أَتمنــاهُم وهيهــاتَ أَقصــى الـــــ دهرُ عــنهم داري وشــطَّ مــزاري

غَير أني أَطوف فــي طلــب الــرز قِ كــأني كُلّفْــتُ مَســحَ البــراري

ومحـــالٌ قـــولي لنفســـي عـــزاءً ســـرعةُ الســيرِ عـــادةُ الأقمـــارِ

لو يُخَلَّــى القَطــا لنــامَ ولــو خُــلّ يتُ لم أرم عــن وجــاري وجَــاري

ولو إني خُيّــرْتُ فــي هــذه الدنــــ يا لما أختــرتُ غيــر قــومي ودادي

هنا تبرزُ خصوصــيةُ الوصــفِ والموضــوعِ بــذكرِ الشــاعر (داري) أولاً ، ثم انتهائهِ بــ (داري) فهو يحنُّ إلــى (دمشــق) التــي فيهــا دارُهُ ويحــنُّ بــالعودةِ إليها ، فقد تركَهَا مُرغمًا لطلبِ الــرزق وصــارَ يطــوفُ بــالبراري بحثًــا عنــه ، فهو وإنَّ خُيِّر في الدنيا لمْ يخْتَرْ غيرَ (قومِــه ودارهِ) موظفًــا تقنيــة الجنــاسِ بــين (وجاري) و (جاري) فالأول المسكنُ والثاني الجــارُ وكلاهمــا لــه ارتبــاطٌ نفســيٌّ وروحيٌّ مع الشاعر، فكان للجنــاسِ وقــعٌ كبيــرٌ فــي رســمِ الصــورةِ الشــعريةِ للمكانِ وإثارةِ إعجابِ المتلقــي وإثــارة انفعالــه لاســيما إن الشــاعر أمــامَ هــذا الضغطِ النفسيّ الكثيفِ وهو يتذكرُ المكانَ ويتشــوقُ إليــه فتعــودُ لغتُــه الشــعريةُ إلى الانفتاحِ لتساعدَهُ على إنجازِ ما تبتغيه الــذاتُ فكــان للجنــاسِ ذلــكَ المســتوى العميق لتشابهِ الكلمتــينِ علــى مســتوى الصــياغةِ والصــوتِ واختلافهمــا علــى

(1) الديوان ص76

مستوى الدلالةِ ووقعَ على عاتق المتلقي إنتاجُ الدلالــةِ المرجــوةِ ذلــك أن (اللفــظ المشتركَ إذا حُملَ على معنى ثمَّ جاء والمرادُ به معنى آخــرُ كــان للــنَّفس تشــوقٌ إليه)[1] فهو (يتمناهم) ويتحسرُ عليهم (وهيهات) ويراه بعيــدَ المنــالِ ؛ لكنّــه مــع ذلكَ لن يتخلى عنهم (لــم أرم عــن وجــاري وجــاري)، و (داره، وجــاره) فهــي أماكنُ تدلُ عندَه على الحياةِ وحركتِها الدائمــةِ ، فمهمــا طالــتْ الرحلــةُ والحركــةُ عندَه لكنّه لا ينساهم، فذكراه تمنحُهُ دومًــا الحيــاةَ الجديــدةَ وتفــاعلاً مــع عالمِــهِ الخارجيّ ، فالبيتُ/ المكان، هو الــركنُ الأهــمُ فــي حيــاةِ الإنســانِ وهــو بدونِــهِ كائنٌ مفتتٌ وله قيمةٌ معرفيةٌ كبيرةٌ ، فكــان المكــانُ الشــعريِّ ممــثلاً كــاملاً عــن خصوصيتهِ وموضــوعهِ وقــد انطــوتْ علــى تشــكيلٍ شــعريّ متكامــلٍ يرســمُه الشاعرُ مبينًا للمتلقي أهميــةَ المكــانِ للــذاتِ الإنســانيةِ ، فحنينُــه إلــى موطنــهِ الأصليّ (دمشق) لتنشأ عندهَ حالــةٌ ذهنيــةٌ للحنــينِ بســببِ انقطاعِــهِ عنــه فظــلّ ينشدُها في شعرهِ ويتطلــعُ للرجــوعِ إليهــا مســتعينًا بــذكرياتِ الماضــي ، فقــد أرّقتهُ الغربةُ ونغصتْ عليــه حياتِــه ، وقــد امــتلأتِ أحشــاؤه بالشــوق إليهــا ، والعودةِ لها لعلّها تداوي عِلةَ حنينِه وتُطفئ نــارَ شــوقِهِ ، وتوقــانَ نفســهِ لرؤيــة (دمشق) التي أفصحَ بها عمّا في ذاتِهِ ومعاناتِهــا بســببِ البعــدِ المكــانيّ ، فكانــتْ أمنيتُه (أتمناهم) رمزاً للانتماء المكانيّ ، كمــا كانــتْ أمكنتُــهُ مســرحًا لأحداثِــهِ ، ويستمدُّ الشاعرُ الديمومةَ من قُــربِ أملــهِ بــالعودةِ إلــى قومِــهِ وديــارِهِ فكانــتْ الأمكنةُ المدخلَ الأكثرَ قربًا الذي أسسَ عليه رؤيتَــه الفنيــةَ لتكــونَ شــاهدًا عليــه .

2/ المكان (من المجهول إلى المعلوم): –

إنّ المكانَ عندَ الشــاعرِ (ابــن عنــين) ينــبضُ بالحيــاةِ ، فالمكــانُ الــذي يسكنُهُ الشخصُ مرآةٌ لطباعِهِ ، وهــو يعكــسُ حقيقــةَ الشخصــيةِ ، ومــن جانــبٍ آخرَ فإنّ حياةَ الشخصيةِ تفسّــرُها طبيعــةُ المكــانِ الــذي يــرتبطُ بــه ، فالمكــانُ

(1) البلاغة العربية، قراءة أُخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالميــة للنشــر، لــو نجمان، 1997م، ط1، ص373

الجديرُ بالاهتمامِ هو المكـــانُ المقبـــوضُ عليـــه بواســـطةِ الخيـــالِ ؛ لأنـــه مكـــانٌ متعددُ الأبعادِ ، مثيرة بـــدورها لخيـــالِ القـــارئ والمشـــاعر المختلفـــة[1] ، فنجـــدُ أحيانًا (المكانَ الموحيَ)[2] فهو يُظهر نفسَهُ ويحـــدثنا بـــدلاً عـــن أن نتحـــدث عنـــه ، فالمكانُ لن يكونَ موحيًا إذا استسلم الشـــاعرُ إلـــى صـــفاتِهِ الموضـــوعيةِ ؛ لكنّـــه يكونُ أكثرَ تأثيرًا وتعبيرًا وأصدقَ خيالاً إذا وضـــعَهُ موضـــعًا نفســـيًّا فنيًّـــا ليميـــزه عن الأمكنةِ الأخـــرى لتـــدخلَ ضـــمنَ جمالياتِـــهِ ، وعمليـــةُ الانتقـــالُ مـــن مكـــانٍ مجهولٍ إلى معلومٍ لها تأثيرٌ كبيرٌ في الـــنفسِ وتكـــوينٌ فـــي الخيـــالِ ، ونجـــدُ ابـــنَ عنين في ذلك يقول[3]: –

تركناهمُ في البحـــر والبـــر لُحمـــةً	تقاســـــمهم حيتانُـــــه وذئابُـــــه
ويوماً على القيمون ماجـــتْ متونُـــه	بـــزرق أعاديـــه وغصَّـــتْ شـــعابهُ
نثرنا على الـــوادي رؤوســـاً أعـــزَّةً	لكـــل أخـــي بـــأسٍ منيـــعٍ جنابُـــه
ورضنا ملوك الأرض بالبيض والقنا	خذلَّ لنـــا مـــن كـــل قطـــرٍ صـــعابُه
فكم أمـــردٍ خـــطَّ الحســـامُ عـــذاره	وكم أشيبٍ كـــان النجيـــع خضـــابُه

ذكرَ ابنُ عنين أمكنةً مجهولةَ الدلالـــةِ غيَـــر معلومـــةٍ (البـــر والبحـــر) ثـــم انتقلَ وتحولّ إلى التخصيصِ بالدلالةِ عنـــدما ذكـــرَ (القيمـــون) فيعـــدُّ المكـــانُ فـــي النصّ الشعريِّ مفتاحًا من مفـــاتيحِ إســـتراتيجيةِ قـــراءة الـــنصِ الشـــعريّ ، فهـــي المنطقةُ المشعةُ في القصيدةِ والتـــي يَلـــجُ منهـــا المتلقـــي إلـــى تضـــاريسِ الـــنصّ الشعريِّ لاستنطاقِهِ وإخـــراجِ مكنوناتِـــهِ ، واستكشـــافِ جمالياتِـــهِ ؛ إذ ذكـــرَ (ابـــنُ

(1) ينظر: – بلاغة المكان/ ص244

(2) م.ن: – ص244

(3)الديوان: – ص20–21

عنين) أمكنةً مجهولةَ الدلالةِ / غير معلومةِ الحدودِ ثم انتقلَ إلى التخصيصِ بالدلالةِ فهو حصنٌ مشهورٌ قربَ الرملةِ بفلسطينَ[1]، فالشاعرُ هنا يفخرُ بانتصارِ العربِ المسلمينِ على الفرنجِ فيها ، وصار مكانَ عزٍّ وفخرٍ لهم ، فكانتْ أثارُها النفسيةُ لهَا الوقعُ الكبيرُ في نفوسِ الجنودِ ، ونصُّهُ الشعريُّ هذا جزءٌ من الواقعِ وانعكاسٌ له ، وتصويرٌ لبعض جوانبهِ كـ (نثر رؤوس الأعداء) بالسيوف (البيض) ونثر الدماء (القنا) في كلِّ أنحاءِ الوادي ، فصارتْ رقابُهم ذليلةً لهم وتكشفتْ الصعابُ أمامَهمُ ، والشاعرُ يضع نفسَهَ بينَ جنودِ الجيش (تركناهم) بدلالةِ الفعل الماضي الذي أُكدتْ به حتميةُ الانتصارِ والفخرِ به كنايةً عن كثرةِ الدماءِ وكثرةِ القتلِ والقتال (فالفعلُ الماضي) يُوحِي بحركةِ فائقةِ السرعةِ تخترقُ صفوفَ الأعداءِ ، وفي الوقتِ نفسِهِ استجابَ الفعلُ لفضاءِ الشاعرِ النفسيِّ وعالمِهِ الإبداعيِّ ليرضيَ قريحتَهُ الشعريةَ ، فبالمكانِ ظهرتْ أهميةُ الخطابِ الشعريِّ لتعاينَ لنا المشهدَ المثيرَ للحربِ لتعملَ على تحريكِ المنظومةِ الفعليةِ الكاشفةِ عن التأثيرِ النفسيِّ للمكانِ ، فإلحاحُ الشاعرِ على (القيمون) كان مثمرًا ، فهو الإطارُ الذي وقعتْ فيه الأحداثُ ، وانتقلَ الشاعرُ هنا من المجهولِ إلى المعلومِ ولعلّ ذِكرَ جزئياتِ المكانِ بمثابةِ التغذيةِ للموضوعِ ففيه أظهر قيمةَ المكانِ فهو الوعاءُ العامُ الذي استحضرَ به الحدثَ (المعركة) فكانتْ سرَّ سعادتِهم ، فقد حفّزَ بها ذهنَ المتلقي ، فهو نصٌّ تسيطرُ عليه أجواءُ الحربِ والحماسةِ فشّكلَ الشاعرُ بـ (القيمون/المكان) هويةً للتعاونِ الجماعيِّ ، فصارَ يثيرُ الذكرى عنَد المتلقي كونَه أوجَد العناصرَ الملموسةَ والمرئيةَ للمعركةِ باعتبارهِ مسرحًا للأحداثِ .

(1) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ت(748ه)، تحقيق: – عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1413ه–1993م–ج44، ص20

وفي انتقالنا إلى نصٍّ آخرَ للشاعرِ بتحويلِهِ المكانَ من المجهولِ إلى المعلومِ ، إذ يذكرُ الواديَ المجهولَ ثم يبدأ بتجليتهِ بـ (القاسيون)، يقول[1] :-

ويا حبذا الوادي إذا ما تدفَّقت ... جداولُ بانـاسٍ إليه تسيلُ

وفي كبدي من قاسيون حزازةٌ ... تزولُ رواسيه وليس تزولُ

إذا لاح برقٌ من سنير تدافقتْ ... لسُحب جفوني في الخدود سيولُ

فللهِ أيامي وغصنُ الصبابها ... وريقٌ وإذ وجهُ الزمانِ صقيلُ

هي الغرضُ الأقصى وإن لم يكن بها ... صديقٌ ولم يُصفِ الوداد خليلُ

المكانُ مكوّنٌ أساسيٌّ في بنيةِ هذا النصِّ الشعريِّ ، إذ افتتحَ نصَهُ بالفعلِ (حبذا) وهو أسلوبُ مدحيّ استخدمه مع غيرِ العاقل (الوادي) بادئًا بالنداءِ بـ (يا) ليُنْزِلَ الواديَ البعيدَ منزلةَ القريبِ ، فصار المكان/ الطللُ هنا شامخًا ، فقد بدأَ بالمكانِ الوادي فوقفَ متأهبًا أمامَهُ ، متعلقًا بذكرياتِهِ الماضيةِ ، ينقلها إلينا تفصيلاً ، فهي وقفةٌ تملأ النفسَ حزنًا وشجنًا ، فيعطي تصويرًا شعريًّا بصريًّا للمتلقي عن الوادي الذي تسيلُ إليه فروعٌ وجداول أنهارِ دمشق وفيها نهرُ (باناس) أو (بانياس) وهو من أجملِ أنهار دمشق ، ثم ينتقل إلى ذكر (قاسيون) الجبلِ المشرفِ على دمشقَ ، إذ ملأها الشاعرُ روحًا وحياةً ، وقد أصابَهُ وجعٌ وغيظٌ وحرقةٌ وهو يحنُّ إلى دمشقَ ومعالمها (حزازةٌ) وهو ألمٌ شديدٌ يعانيه في بلاد الغربةِ ، (فاسمُ المكان يدلُّ على مسماه ، ويوحي إلى ماهيته ، ويمّكن المتلقي من الولوجِ إلى عالمِ المكانِ

(1) الديوان/ ص70

الداخلِ)[1] ثم ينتقلُ إلى مكانٍ معلومٍ آخرَ (سنير) وهو من جبال دمشق ، فيعطي تصويرًا شعريًّا بصرياً لذلك الموقفِ الذي يراهُ بعينِهِ وهو بعيدٌ عنه ، إذ يشبه الشاعرُ البرقَ والمطرَ في (سنير) بنفسِهِ عندما يُعاينُ ذلكَ الموقفِ ، وتبدأ عيونَه بالبكاءِ وتسيلُ على خدودهِ الدموعُ ، فالصورةُ الانفعاليةُ صورتْ ألمَ الشاعرِ وحالتَهُ الوجدانيةُ المرتبطةُ بالمكانِ الشعريّ ، فكانتْ عينُ الشاعرِ لها الاحتكاكُ المباشرُ بالحنينِ والمكانِ ، وكان للتشبيه البليغِ دورٌ كبيرٌ في إبرازِ أهميةِ المكانِ للإنسانِ / الشاعر وهو ينقلُ تلكَ الصورةَ وحقيقةَ بُعدِها النفسيّ لتلائمَ وتتفاعلَ مع حالةِ الخطابِ وغرضِهِ النفسيّ ، وقد أرادَ الشاعرُ من هذا التصويرِ تقريبِ مدى حنينه إلى دمشقَ ونقلِ تجربتِهِ إلى مسامعِ غيرهِ ، وذلك نتيجةً للروابطِ الخفيةِ للمكانِ وهي التي أضاءتها وكشفتها , فهو حوارٌ ليجمعَ شتاتَه ، فبذكرهِ لمجهولِ بدايةً ، انتقل إلى إجلائه بالمعالمِ (باناس، قاسيون، سنير) بصورةٍ حسيةٍ نابضةٍ بالحيويةٍ والحياةِ والحركةِ لنرى مدى انتمائه العميق لموطنِهِ الروحي لمكانِهِ قافزًا إلى تقنية التشبيه مرةً أخرى في (وجه الزمان) فـ (الاتكاءُ على الأدواتِ البلاغيةِ في تحقيق بلاغةِ المكانِ في صورهِ المختلفةِ يسمحُ بتلمسِ لذةِ المتخيل على الصعيد المكاني)[2] ليُخرج الصورةَ عن الجمودِ إلى الحركةِ ، مشبهًا الزمانَ بتعابيرِ الوجهِ عند الشوق والحنينِ ، فالمبتغى العودةُ إلى دمشقَ (هي الغرضُ الأقصى) حتى وإن خلَتْ من ساكنيها والأحبةِ (وإن لم يكن بها صديق) فبرزت قيمةُ المكانِ هنا ممثلةً بشكلٍ كاملٍ بنداءِ الشاعرِ وصيحاتِهِ .

(1) المكان والمنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف، مرشد احمد، دار القلم العربي، حلب – سورية، ط1، 1418ه/1998م، ص41

(2) شعرية المكان في الرواية الجديدة – الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً، خالد حسين حسين، مؤسسة اليمامة الصحفية، 1431ه، ص389

وبانتقالنا إلى نصٍّ آخرَ يُخرجُنا بـهِ الشـاعرُ مـن المجهـولِ إلـى المعلـومِ يقول : [1]: –

وكم قيلَ لي في ساحةِ الأرضِ مذهبٌ وعن وطنٍ للنفس ميـلُ إلـى وطـنْ

وهـل نـافعي أنَّ الـبلادَ كثيـرةٌ أطوفُ بها والقلـبُ بالشـامِ مـرتهنْ

وما كنت بالراضي بصـنعاءَ منـزلاً ولو نلتُ من غمدان ملك ابنِ ذي يزنْ

عسى عطفةٌ بدريةٌ تعكـسُ النـوى فألفى قرير العـينِ بالأهـلِ والـوطنْ

يلجُ الشاعرُ إلى المجهولِ بـ (كـم) الاسـتفهاميةِ مرتكـزًا علـى المكـان (ساحة الأرض) ليقدمَ لنا صورةً عن مـدى اشـتياقِهِ لـ (دمشـق) متحـررًا مـن مجهوليةِ المكانِ إلى معلوميتِه ؛ إذ تتحرر ذاتُهُ وتتـوقُ إلـى أجمـلِ بقـاعِ الأرض عندَه ، فيحشدُ الشاعرُ كل إمكاناتِهِ وطاقاتِهِ على صـعيد المكـانِ ، فمكانـهُ يمتـازُ بالوضوحِ والإدراكِ الحسيِّ مـن جانـبٍ ، ومـن جانـبٍ آخـرَ يتـوارى ويتعـالى ويركنُ للانتقالِ مـن المجهـولِ إلـى المعلـومِ علـى الصـعيد الـدلاليّ ، فعلاقـةُ الشاعرِ بالمكانِ تتسمُ بكثافةٍ شعريةٍ تبـدأ بصـرخةِ الحنـينِ إليـه ، ومنـه تنبثـقُ كينونتُه الإنسانيةُ ومن تلك اللحظةِ تنسـجُ علاقتـه مـع المكـانِ وتبـدأ فعاليتُهـا بالنمو معها ، ونلاحظُ توظيـفَ الشـاعر لـ (هـل) الاسـتفهاميةِ ، فقـد وجـدَ الشاعرُ فيها متنفسًا عمّا يختلجُ بداخلـهِ ، محـاولاً إشـراك المتلقـي بانفعالاتِـهِ ، فأدوات الاستفهام جاءتْ لطلبِ التصديق فصارتْ له القـدرةُ علـى إظهـارِ براعـةِ الشاعرِ، وهي وإنْ كانتْ كذلكَ لكنّها لم تكـنْ تنتظـرُ إجابـةً مـن المتلقـي ، لأنـه قرر أنّها أجملُ بقاعِ الأرضِ ، ثم يعودُ نافيًّا (وما كنـتُ بالراضـي) موظفًـا أمكنـة (صنعاء، غمدان) ليثبتَ للمتلقي أنّه يحنُّ إلى دمشـقَ ويشـتاقُ إليهـا مهمـا عـلا

(1) الديوان/ ص78

مكانُهُ وكَثُرَ مالُهُ (ولو نلت من غمدان ملك ابن ذي يزن) موظفًا شخصيةً تاريخيةً غنيةً معروفةً في التاريخِ ؛ إذ (يستحيلها وسيلة فنية تصورُ بعضَ تفاصيلِ واقعهِ وأداةً للتعبيرِ عن مواقفِهِ من الآخرين في محيطه بإسقاطِ بعضِ خواصّ الذاتِ الموروثةِ على الآخرِ المعاصرِ إشباعًا لرغبةٍ كامنةٍ في نفسِهِ وتحقيقًا لوظائفَ جماليةٍ وإرادةٍ فنيةٍ عارمةٍ بتقديمِ واقعٍ تاريخيّ في حيزٍ شعريٍّ محددٍ يُعبرُ عن طموحِ ذاتيٍّ دافعُهُ بيانُ انتماءِ التجربةِ الجديدةِ إلى ماضيها ورموزهِ الاجتماعيةِ الفاعلةِ ، فضلاً عن التقربِ من الآخرِ من خلالِ القولِ الشعريّ)[1] وهو يثبتُ بذلك أحقيتَهُ بالعودةِ إلى ديارِ أهلهِ ، فالخارطةُ الشعريةُ التي يرسمُهُا الشاعرُ تبينُ لنا مدى تداخلِ ذاتِهِ مع المكانِ في تجربتِهِ الشعريةِ ، فكان حسٌّ المكانِ عنده أصيلاً وعميقًا في وجدانِهِ ؛ لأنّ (دمشق) عنده مكانُ الألفةِ والانتماءِ ، خاتمًا بالتمني (عسى) متوقعًا حصولَ مبتغاه ، فهي أمنيتُهُ ففيها لقاءُ الأهلِ والأحبةِ داخلَ الوطنِ مهما طالَ الزمنُ أو قَرُبْ ، مطلقًا القصيدةَ بالقافيةِ المقيدةِ دلالةً على الهدوءِ والاطمئنانِ لرجائهِ بالعودة القريبةِ والاستقرارِ النفسيّ ، فكان للمكانِ دورهُ الكبيرُ في إطلاق مخيلتِهِ نحوَ رسمِ صورهِ الشعريةِ ، وللالتزام الدلالي لنصه دورٌ في إثباتِ مدى جدارةِ المكانِ وفاعليتهِ في النصّ الشعريّ .

3/ المكان (الشمولية والتأثيث): –

إن المكانَ عندَ الشاعرِ ليس موضوعًا فحسب بل هي حقيقةٌ نفسيةٌ ، وهو ليس كيانًا ماديًّا مجردًا ، إنما هو عنصرٌ فنيٌّ مكتنزٌ بالقيمِ والأفكارِ، (يحاكي صور الأشياء في الواقعَ ، وقد يفوق الواقع بالمعنى والرمزِ والدلالة

(1) التناص في شعر صفي الدين الحلي (ت750ه)، مقداد خليل قاسم الخاتوني، أطروحة دكتوراه، بإشراف أ.م. د. يونس سلوم البجاري، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1433ه–2012م/ ص164–165.

بإطـــار التركيـــب المجـــازي لـــه داخـــلَ القصـــيدةِ أو الـــنصِّ الشـــعريِّ)[1]، إذ إن الشاعرَ يهتمُ بالمكانِ لإيضاحِ مقاصـــدِهِ ، فتنبثـــقُ منهـــا صـــورةٌ كمـــا لـــو كانـــتْ قطعةً من ذاتِهِ ، فالعلاقةُ بينَ توزيعـــاتِ المكـــانِ مـــن حيـــثُ الشـــموليةُ والتأثيـــثُ تُكسبُ النصِّ طابعًا تخيليًّا شعريًّا ، فنجدُ ابنَ عنين يقولُ[2]: -

فسقى دمشـــقَ ووادييهـــا والحمـــى   متواصلُ الإرعـــاد منفصـــمُ العُـــرى

حتى ترى وجهَ الريـــاضِ بعـــارضٍ   أحوى وفَـــودَ الـــدَوْح أَزهـــر نّيـــرا

وأعـــــاد أيامـــــاً مضـــــين حميـــــدةً   مـــا بـــين حَـــرَّة عـــالقين وعَثْتـــراَ

تلـــــك المنـــــازلُ لا أعِقَّـــــةُ عـــــالجٍ   ورمالُ كاظمـــةٍ ولا وادي القـــرى[3]

أرضٌ إذا مرَّتْ بهـــا ريـــحُ الصَّـــبا   حملتْ على الأغصان مســـكاً أذْخـــرا

حفرياتُ المكانِ في النصـــوصِ الشـــعريةِ مختلفـــةٌ حســـبَ تأثيرهـــا علـــى الشاعرِ / الإنسانِ وتحديدِ نشـــاطِهِ مـــن فاعليـــةٍ أو خمـــولٍ ، فهـــو يـــدعو لهـــا بالسقيةِ وهو بعيدٌ عنها ، وذلك تأثيرُ المكـــانِ ، حتـــى يـــراه وقـــد انتشـــرَ الربيـــعُ فيه وتمتعَ الناظرُ إليه ، فهنا تكمنُ قيمتُهُـــا وجودتُهُـــا، فهـــو يتـــذكرُ الأيـــامَ التـــي قضاها هناك ، مؤثثًـــا للمكـــانِ بكـــلِّ جوانبِـــهِ (الحـــرة ، عثتـــرا ، أعقـــة ، وادي القرى) فعلاقُتُه بالمكانِ ليستْ طارئةً وهامشـــيةً وإنمـــا هـــي فـــي الصـــميمِ (إذ إن

(1) الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، د. حيدر لازم، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010م-1431ه/ ص155.

(2) الديوان/ ص4

(3) الأعقة: -جمع عقيق والعقيق الوادي، عالج: -رمال بين فيد والقريات على طريق مكة، ينظر: -القاموس المحيط، الفيروز آبادي، رتبه ووثقه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط4، 1430ه/2009م، 895.

المكانَ مؤهلٌ للكشفِ عن لا وعي الشخصيةِ وجوانبها النفسيةِ والاجتماعيةِ ؛ لأنه ببساطةٍ لا معنى ولا دلالةَ للمكانِ بعيدًا عن الإنسانِ الذي يقومُ بتنظيمِهِ)[1] فكانتْ كلُ أمكنتِهِ هنا ثابتةٌ ، وكان لمشهدِ المكانِ حضورٌ في كلِّ جوانبِ النصِّ ، ثم يقحمُ الشاعرُ الزمنَ (أعاد أيامًا) داخلَ النصِّ الشعريِّ ؛ لأنَّ المكانَ والزمانَ عنصرانِ متلازمانِ لا يفترقانِ ، لكنَّ المكانَ ثابتٌ على عكسِ الزمنِ المُتحركِ وهو مع ثبوتِهِ واحتوائِهِ للأشياء الحسيةِ المستقرةِ فيه يُدركُ إدراكًا مباشرًا[2] ، ويوظفُ الشاعرُ تقنيةَ التشخيصِ في توظيفِ المكانِ شعريًّا (وجه الرياض) إذ انحرفَ إلى معنى جديدٍ للزيادةِ بالمعنى الاستعاريِّ فكانَ (الوجه) المستعارُ ملائمًا لـ (الأرض) من جانبِ الدلالةِ الإيحائيةِ وحركةِ نفسهِ الوجدانيةِ وقيامِ التفاعلِ بينهما ، فهي الأرضُ / المكانُ الذي إذا مرتْ (ريح الصبا) بها تحملُ ذلك المسكَ الزكيِّ ، فليس المكانُ هو المعطى الخارجيِّ المحايدَ ، إنما هو (الحياةُ) لا يحدُّه الطولُ أو العرضُ أو المساحةُ فقط ، إنما له خاصيةُ الشمولِ والتكاملِ ، والمعنى فيه لا يكتسبُ أبعاده القصوى إلا إذا استرفدَ واستخلصتْ منه محمولاتِهِ الدلاليةِ .

ويؤطرُ الشاعرُ المكانَ ويؤثثُهُ في نصوصِهِ الشعريةِ ، فنجدهُ يقولُ[3]: -

عسى البارقُ الشاميُّ يهمي سَحابُهُ فتخضلَّ أثباجُ الحِمى ورحابُهُ

وتسري الصَبا في جانبيه عليلةً كما فُتقتْ من حضرميٍ عيابُهُ

خليليَّ مالي بالجزيرة لا أرى للمياءَ طيفاً يزدهيني عتابُه

فيا من لراجٍ أنْ تبيت مغذَّةً ببيداءَ دون المـاطِرون ركابُه

(1) شعرية المكان في الرواية الجديدة/ ص118.

(2) ينظر: - جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه ، ص225.

(3) الديوان/ ص 19-20.

إذا جمـــلُ الريَّـــان لاحـــتْ قبابـــه لعيني ولاحتْ مـــن ســـنيرٍ هضـــابُه

وهبَّتْ لنا ريحٌ أتتنـــا مـــن الحمـــى تحـــدثُ عمَّـــا حمَّلتْهـــا قبابُـــه

وقامتْ جبالُ الـــثلج زُهـــراً كأنهـــا بقيَّةُ شـــيبٍ قـــد تلاشـــى خضـــابُه

ولاحتْ قصـــورُ الغـــوطتين كأنهـــا ســـفائنُ فـــي بحـــرٍ يعـــبُّ عُبابُـــه

يعـــدّ المكـــانُ الموظـــفُ شـــعريًا عنـــد (ابـــن عنـــين) المرتكـــزَ الأســـاسَ لموضوعِ القصيدةِ ، إذ يوظفُه استكمالاً لمبتغـــاه الأســـاسِ فـــي إيصـــالِ موضـــوعِهِ للمتلقي ، ومن خلالِهِ يمررُ ما في خيالـــهِ إلـــى الواقـــعِ لـــيُعلنَ عـــن موضـــوعِه ، ويعد المحرك في النصّ وذا التأثيرِ المباشرِ، فكـــلُّ الأمكنـــةِ التـــي ذكرَهـــا الشـــاعرُ موجودةٌ في الشامِ ، وهو يتشوقُ إليها مؤثثـــاً لأركانِهـــا، متـــذكرًا جمالَهـــا، بادئـــا نصّه بالفعـــلِ الماضـــي (عســـى) دلالـــةً علـــى حتميـــةِ الوقـــوعِ وترجـــي الأمـــر المحبوب (البارق الشامي) لتخضرّ أوساط (الحمـــى) وتزهـــو جوانبُـــهُ ، ثـــم تعـــودُ ريحُ (الصبا) في جوانبِ (حماه) لتريحَ القلوبَ وتشـــفيَ العليـــلَ ، ويعـــودُ متســـائلاً بعدَ طولِ غربةٍ ، كيف لا يرى لحبيبتِهِ التي رمـــزَ إليهـــا بـــ (لميـــاء) وجـــودًا أو أثرًا ، فالمكانُ ليس عاملاً طارئاً فـــي حيـــاةِ الإنســـانِ أو الشـــاعرِ وإنمـــا (معطـــى سيميوطيقي ، فالمكـــانُ لا يتوقـــفُ حضـــورهُ علـــى المســـتوى الحســـيّ ، وإنمـــا يتغلغلُ عميقًـــا فـــي الكـــائنِ الإنســـانيّ ، حـــافرًا مســـاراتٍ وأخاديـــدَ غـــائرةً فـــي مستوياتِ الذاتِ المختلفةِ ليصبح جـــزءًا صـــميمًا منهـــا ؛ وذلـــك لأنّ المكـــانَ هـــو الفسحةُ / الحيزُ الذي يحتضنُ عملياتِ التفاعلِ بين الأنا و العالم)[1] .

ويعودُ الشاعرُ في نقطـــةٍ صـــوريةٍ مكانيـــةٍ أخـــرى يؤثـــثُ لبـــاقي أرجـــاءِ الشامِ (فيا من لراج ...) و (دون الماطرون...) وهـــي مـــن جبـــالِ دمشـــق التـــي

(1) شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص60.

يحنّ إليها ، عادًّا إياها من معالمِها التي يشتاقُ إليها ، متحولاً إلى (جبل الريان) الذي لاحتْ له معالمُهُ كما لاحتْ جبالُ (السنير) معها ، فالتشكيلُ البصريّ هنا له الدورُ البارزُ في تقديمِ المكانِ بأسلوبيةٍ عاليةٍ في تشغيلِ خيالاتِ الشاعرِ وأحاسيسِ المتلقي وترتيبِها بإمكانيةٍ هندسيةٍ مؤثثةٍ تعطي المجالَ الأرحبَ لفهمِ النصّ واستيعابهِ ، ونرى توظيفَ الشاعرِ للتشخيصِ (ريح اتتنا من الحمى... تحدث...) فهو ما يزالُ بعيدًا عن موطنِهِ ، يشتاقُ إليه ، ذاكرًا معالمه ، أمكنته ، دون أن يراه ، ثم تهبُ تلك الريحُ من جهتِها لتُحدثَه عما حلّ بها ، فكان للتشخيصِ وقعٌ نفسيٌّ عندَ الشاعرِ، وفي الوقتِ نفسِهِ التأثيرُ المباشرُ على المتلقي ، وإثارةُ انفعالهِ فعنصرُ التفخيمِ حاضرٌ في النصّ بالتشخيصِ ، فكان المكانُ صديقَ صاحبِهِ ، وساكنيهِ ، وتصلُ الألفة بينهما إلى حدِّ المشاركةِ في عكسِ أفراحِ الشاعرِ أو أحزانِهِ أو آلامِهِ ، أو شوقِهِ وحنينِهِ ، فالمكانُ يتغلغلُ في أنحاءِ جسدهِ ويستقرُّ في صميمِ ذاتِهِ ، مشبهًا (جبال الثلج) بالزهورِ وكأنّه إنسانٌ قد تلاشى عمرهُ ، وانتقلَ إلى مرحلةٍ أخرى (بقية شيب قد تلاشى خضابه) وقد زالتْ أثارُ الحناءِ من الشيبِ ، كما زال البياضُ من (جبال الثلج) فكانَ تشبيهُهُ (أكثرُ إصابةً وأرفعُ قدرًا وأبعدُ مجالاً في رحابِ التخييلِ) [1] كما وضعَ الشاعرُ لأداةِ التشبيه (كأنها) بُعدها النفسيّ الخاصّ ، فهي التي توحي للمتلقي أن المشبَه غيرُ المشبهِ به مهما بلغتْ الصفاتُ المشتركةُ بينهما ، فهاجسُ الإحاطةِ بالمكانِ وتأثيثِهِ هنا كان عتبةَ النصّ الشعريّ لابن عنين لها فاعليتها في الحضورِ الشعريّ بدلَ الغيابِ المطلق ، وينتقلُ إلى تأثيثٍ آخرَ لبساتينِ دمشقَ والمزارعِ المحيطةِ بها (قصور الغوطتين) فيصورُ الشاعرُ وكأنّه يراها عن بُعدٍ (ولاحت) ويشبهُها بالسفنِ في (بحر) مطلق مجهولٍ تسمعُ صوتهَ عن بُعدٍ (يعبٌّ عبابَه) في منظرٍ حسيّ طبيعيّ مؤثرٍ في الشاعرِ والمتلقي ، فكانتْ

(1) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، وزارة الأوقاف العراقية، ط1، 1984، 1404ه / ص192.

بتأطير الشاعرِ العامِ للمكانِ / دمشق وتأثيثهِ الخاصّ لأركانها أو جوانبها – رابطًا بينهما بتقاناتٍ شعريةٍ خادمةٍ للنصّ – دلالةٌ حققتْ لشعريةِ المكانِ وجودها تحقيقًا فعليًّا .

إنّ تفتيتْ البادية (الجزيرة) والحياةِ الاجتماعيةِ واختزالها إلى ثيماتٍ مكانيةٍ صغيرةٍ ومحددةٍ (جبل الريان ، هضابه ، الغوطتين ، قصور) ومن ثمّ توزيعها وإشراكِ الصحبِ في سؤالها (خليلي) يعني هيمنتَها الثقافيةَ ، فهي من السعةِ والغموضِ ما لا يمكنُ السيطرةُ عليه إلا بالكتابةِ عنها ، فالكتابةُ الشعريةُ فعلُ استجابةٍ للهيمنةِ العقليةِ وإمكانيةٍ لفهمِ محدَّدٍ لما فيها بعدَ أنْ يضيفَ الشاعرُ إليها من عناصرِ الحياةِ اليوميةِ (لاحت ، هبت ، قامت...) فالمكانُ المتدرجُ المبنيُّ على توالي / تتابع الأمكنةِ الصغيرةِ يشيرُ إلى الكليةِ العقليةِ المفاهيميةِ للطبيعة[1] ، وإنّ العلاقةَ بينَ توزيعاتِ المكانِ والبُعدِ الاجتماعيّ تكسبُ طابعًا تخيليًا شعريًا .

ويرفدنا الشاعرُ بمكانٍ آخرَ بذكرِ شموليتهِ وتأثيثهِ ، إذ يقول[2]: –

فيا أيها المَلْكُ المعظَّمُ دعوةً ... إليكَ لمطويّ الضلوعِ على جمرِ

غريبٌ إذا ما حلَّ مصراً أبى له ... وشيكُ النوى إلا ارتحالاً إلى مصرِ

له غُنيةٌ عن غيركم من قناعةٍ ... وأما إلى معروفكم فأخو فقرِ

أشقّقُ قلبَ الشرق حتى كأنني ... أفتّشُ في سودائهِ عن سَنا الفجرِ

(1) ينظر: –مدخل إلى النقد المكاني، ياسين النصير، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية – دمشق، 2015م – 1439ه / ص48.

(2) الديوان / ص29.

فختَّامَ لا أنفكُّ فـي ظهـر سبسـبٍ أهجّـرُ أو فـي بطـن دَوّيَـةٍ قفـرِ

إنّ الشاعرَ وهـو يـنغمسُ داخـلَ المكـانِ تتسـللُ إلـى أعماقِـهِ أصـداءُ الماضـي ، موشوشـةً أحاديثُهـا الغامضـة[1] ، إذ توجـدُ علاقـةُ انتمـاءٍ بـين الشخصيةِ / الشاعرِ ، وبين المكـانِ ومـن خـلال رابطـةِ الانتمـاءِ تظهـرُ تلـكَ العلاقةُ ، وبوساطتِها يمكنُ تحديد أجواء الألفـة ، فقـوةُ انتمـاءِ الشخصـيةِ تظـلُّ على ارتباطٍ شديدٍ بالمكانِ حتى وإنْ هجرهـا ، أو عـاشَ بـداخلِها ، وهنـا يصـفُ الشاعرُ المكانَ ثم يؤثثُه (بالمعروف) وهي قيمةٌ مجـردةٌ ، ثـم عـاد إلـى وصـفِ الرحلةِ في الصحراءِ (ظهـر السبسـب) كنايـةً عـن الصـحراءِ ، فهـي تحضـرُ صفاتِها داخلَ الإنسانِ ومناخِها القاسـي يقتضـي إرادةً قويـةً تكـافحُ دائمًـا مـن أجلِ استمرارِ العيشِ ، وبهـذا يفـرضُ التعامـلُ الـواقعيُ ، فهـي فضـاءٌ مـبهمٌ مجهولٌ يتحولُ بعدَ ذلك إلى فضـاءٍ معلـومٍ ، فالفضـاءُ أكبـرُ مـن المكـانِ وهـو ينطوي عليه ويتشكلُ ويمتلـئُ بـه ، وهنـاك مـن يميـزُ بـينَ المكـانِ بوصـفهِ عنصرًا من عناصرِ الفضـاءِ ، والفضـاءُ بوصـفِهِ الغـلافَ الـذي يشـتملُ علـى معظمِ الأمكنـةِ ، فالمكـانُ ذو سـمةٍ جزئيـةٍ ، أمـا الفضـاءُ فيمتـازُ بالشـموليةِ والعموميةِ[2] ، ثم يتحولُ الارتحالُ من مكـانٍ سـلبيّ إلـى إيجـابيّ ، وهـو فعـل إراديٌ قصديٌّ (فأخو فقر) إذ ارتحـلَ بفقـرهِ عِبـرَ (القفـار) إلـى أرضٍ مأهولـةٍ بالمعروفِ وهي (مصرُ)، ثم يصورُ نفسَهُ بالرجلِ الـذي لديـه عـزةُ نفـسٍ وعنـده قناعتُهُ (له غنيةٌ) لكنّه مع وجودِ (الملـك المعظـم) فقيـرٌ، وكانـت (مصـرُ) تمثـلُ خصوصيةً لساكنيها من حيثُ ألفتُهُ في خفايـا النفـوسِ ، فالعلاقـةُ لا تنشـأ بـينَ المكانِ والإنسانِ إلا عبـر المُآلفـةِ ، والمآلفـةُ هـي اختيـارُ الأمكنـةِ والتـواريخِ والشخصياتِ (مصر، سبسـب ، الشـرق ، الملـك المعظـم) والأحـداثِ والأفكـارِ

(1) ينظر: -فلسفة المكان في الشعر العربي / ص35.

(2) ينظر: -شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص81-82.

والأساليب ، وهذه تعني الموادّ الأولية للبنــاءِ ، ثــم تــأتلفُ فيمــا بينهــا لتكــوينِ وحدةٍ لفضائيةِ النصِّ[1] . فتفعيل الشاعرِ للمكانِ هــو لإنتــاجِ حالــة مــن الــتلاؤمِ بين الوجود الخارجي والذات .

*   *   *

إنَّ المكانَ الواقعيَّ هو الذي يجعلُ الخبــراتِ المكانيــةَ مكونًــا مهمًــا لإدراكِ الشاعرِ لأهميتِهِ فــي نصِّــه ، فــالترابطُ الناشــئ بــينَ الشــاعرِ وهويــةِ المكــانِ أصبحا كيانًا موحدًا يعطــي للمتلقــي انطباعَــه عــن المكــانِ الموصــوفِ ويولــد الازدواجيةِ المكانيةِ التــي تجمــعُ مــابينَ الواقــعِ والمتخيــلِ ، فــابن عنــين لــم يتناولْ المكانَ على أنّه كيانٌ مــاديٌّ فحســب ، بــل عــدهّ نقطــة ارتكــازٍ لتفجيــرِ همومهِ وأحاسيسهِ ، فمكانُه كنقطــةِ الضــوءِ المشــعةِ فــي نصوصِــهِ الشــعريةِ ، كشفَ به عمّا يدورُ بذهنِهِ ، وبها أسسَّ مرتكــزاتٍ لقصــائدهِ ، فكــان فيهــا الكثيــرُ من الرؤيةِ الشعريةِ التي رفدتْه بالمعطياتِ ملبيةً طموحَــه ورغباتِــهِ فــي وحــداتٍ دلاليةٍ متعددةٍ ومتعاقبةٍ ومتناميــةٍ فــي مســيرِها وتطورِهــا الــدلاليِّ إلــى إكمــالِ المعنى وتمامِ التصورِ ، فكان لتأسيسِهِ المكــانيِّ دورٌ كبيــرٌ لإقامــة التصــورِ عنــد القارئ ليستقطبَ المعنــى وليصــلَ إلــى عمقِــهِ ، فاســتطاعَ الشــاعرُ أنْ يربطنــا بالمكانِ ذاتيًا وخياليًا وثقلاً فنيًا بعدما كــان يــدركُ بحــدودِهِ الجغرافيــةِ المعروفــةِ ، وارتفع بالمكانِ من الوجودِ الفعليّ إلى الوجــودِ التصــوريِّ المتخيــلِ فــي الــذاتِ ، الهدفُ منه التقاطُ الأحاسيسِ والعواطفِ والمشــاعرِ لإنمــاءِ الــوعي الشــعريّ ، فاهتمامُ الشاعرِ بالمكانِ يرجعُ لحضورِهِ المكثفِ في حيــاةِ كــلّ إنســانٍ وفــي كــلّ جوانبهِ انطلاقًا من ولادتِهِ حتــى مماتِــهِ ؛ إذ اســتقرَ المكــانُ عنــده وأخــذَ بُعــدًا نفسيًّا حتى غدا يعبرُ عــن أفكــارهِ ومشــاعرِه عنــد استحضــارهِ مكونًــا عنصــرًا فاعلاً لتجربتهِ الإبداعية ، فالمكــانُ الحيــز المــاديُّ يعنــي الشــيءَ الكثيــرَ لــه ؛ لارتباطِهِ الوثيق به لفاعليتــه فــي الــنفس الإنســانية ، فهــي مرتبطــة بــه منــذُ

(1) ينظر: –مدخل إلى النقد المكاني، ص111.

الصغرِ ، مختزنة معالمها في ذاكرته ، وهي متنفسه الوحيد ، والعلاقة بينهما علاقة يجسدها الإحساس والتآلف والانسجام ، فشكلت مادته الجوهرية في خطابِهِ الشعريّ ، وتحولت إلى جزءٍ رئيسٍ من شخصيتهِ الشاعريةِ والإنسانيةِ ملتحمة بذاكرتِهِ ووجودهِ .

Effectiveness of Place in Ibn Onain's Texts

Fairs Yasseen Mohammed Al-Hamdani*

Abstract

Place plays a vital role in structuring and building a poetic text. As a part of the setting, it is the standpoint from which incidents commence and characters move, to charge the text with condensed denotations making it viable and to add integration and comprehensiveness allowing it to take an artistic form that impresses readers. Then, it is a constituting element that make the text coherent and harmonious and its varied denotations bear self features, creative characteristics. Also, it relates to the feelings of man as it is the background against which social problems and experiences are shown, that is why many feelings and emotions are associated with it.

As far as Ibn Onain is concerned, his wide knowledge enabled him to delineate the actual places imaginarily, first of all inside himself, and second inside his readers stimulating them to feel it. For him, each place is associated with a certain incident and an action that his intellectual vision and memory can identify.

Key words : portrait؛ receiving؛ poetic

* **Department of Arabic Language / College of Arts / University of Mosul**

References:

- Yaqut AlHamawy, Muejam Al'Udaba' , 'Iirshad Al'Arib 'Iilaa Maerifat Al'Adib, dar algharb al'iislamii , 1993, 2100 .

- Abn Khalkan, Wafayat Al'Aeyan Wa'anba' 'Abna' AlZaman, dar sadir , bayrut, 1994 , 3500 .

- AlDhahabi, Sayr 'Aelam AlNubala'i, dar alhadith / alqahirat , 2006 6200.

- AlSfdy, AlWafi Baluafyati, dar 'iihya' alturath alearabii , bayrut , 2000, 3600 .

- AlZrkly, Al'Aelami, dar aleilm lilmalayini, birut, 2001, 7400 .

- Eabdalrahman Munifi, AlMakan Wadalalatuh Fi Riwaya (mdun almilha), Ealim alkutub alhadithi, 'iiribidu, al'urduni 2010, 410 .

- Qadat Eaqaqi, Dalalat AlMadinat Fi AlKhitab AlShierii AlEarabii AlMueasiri-Dirasat Fi 'Iishkaliat AlTalaqiy AlJamalii Lilmakani, manshurat atihad alkitaab alearabi, dimashqa, 2001, 280 .

- Habib Munisi, Falsafat AlMakan Fi AlShier AlEarabii-Qira'at Mawdueatiat Jamaliatun, Manshurat Atihad AlKitaab alearabi, dimashqa, 2001, 230 .

- Eabdalkhaliq AlEaff, Dirasat Fi AlShier AlFilastinii AlMuqawim , Rabitat alkitaab alfilastiniiyn , 2010 , 195.

- Fathiat Kiltushi, Balaghat AlMakani/ Qira'at Fi Makaniat AlNasi AlShieri, muasasat aliantishar alearabii, bayruti-lubnan, 2008, 340 .

- Siza Qasma, Bina' AlRiwayati, Dirasat Muqaranat Lithulathiat Najib Mahfuzin, AlHayyat almisriat aleamat lilkitabi, 1984, 320 .

- Khalil Muradam Bik, Diwan Abn Eanin, Matbueat AlMajmae AlEilmii alearabii bidimashq , 1946, 640 .

- Mahdi Eubaydi, Jamaliaat AlMakan Fi Thulathiat Hanaminihi, (hikayat Bbhhar, AlDdql, AlMarfa albaeida) , Wizarat althaqafat , alhayyat aleamat alsuwriat lilkitab , dimashq , 2011, 410 .

- Hasan Majid, Nazariat AlMakan Fi Falsafat Abn Sina, Baghdad , dar alshuwuwn althaqafiat aleamat , wazarat althaqafat wal'iielami, 1987 , 240 .

- Esam Shirtahi, AlFikr AlJamalii Eind Shueara' AlHadathat AlMueasirin , dar 'umanat lilnashr waltawzie , almamlakat al'urduniyat alhashimiat , 2018 , 420 .

- Muhamad Eabdalmatalabi, AlBalaghat AlEarabiat, Qira'at 'Ukhra, AlSharikat AlMisriat AlEalamiat lilnashri, law najman, 1997, 360 .